

العطاء التعليمى المصرى ٠٠٠ عربيا

مقدمة :

الحديث عن عطاء مصر فى التعليم للبلدان العربية لا ينطلق من باب " المن " و " التباهى " ، ومحاولة إثبات الفضل ، وإنما هو محاولة غاية فى الإيجاز إلى الدرجة التى نخشى معها أن تصل إلى حد الإخلال ، سعيا نحو تقديم ما يمكن تسميته " بكشف حساب " عما قام به الأخ الأكبر من " واجب " نحو إخوته ، ولأن الواجب يقابله حق ، فهذا يعنى أننا من زاوية أخرى نحاول الكشف عما ناله الإخوة من " حق " التعلم والتعليم من الأخ الأكبر .

نقول هذا دون أن نستند إلى مجرد فيض من المشاعر العاطفية والانفعالات الموقوتة ، ولا من باب الدعاية والمجاملة ، أو حتى مجرد استجابة لطلب بالحديث فى الموضوع ، وإنما نقوله عن " إيمان وعقيدة " ، إيمان يشكل هوية الكاتب ، وعقيدة ينطلق ويفكر فى إطارها ، دون أن يجد تعارضا أبدا بين هذا وبين دائرتين أخريين يستند إليهما فى استكمال مثلث الهوية ، وهما الدائرة المصرية ، والدائرة الإسلامية .

وفضلا عن ذلك ، فسوف يتضمن تناولنا للموضوع أيضا ما يؤكد أن القضية تستند إلى براهين عقلية وأدلة منطقية ، وإلى تاريخ . والأدلة والبراهين العقلية كلها تقوم على ما يمكن تشبيهه بالنظرية الخاصة بالضغط الجوى ، فنحن نعلم منها أنه عندما تكون هناك منطقة تعيش ضغطا جويا منخفضا ، وأخرى ضغطا مرتفعا ، فلا بد أن تهب الرياح من الثانية إلى الأولى . كذلك بالنسبة للثقافة والتعليم ، فعندما تكون الفرصة قد أتاحت لمجتمع أن يعيش ثقافة وتعلما أكثر ازدهارا وتقدما ، فلا بد أن تلجأ المجتمعات التى لم تحظ بهذا إلى الاستفادة من سابقتها .

ولسنا فى حاجة إلى التنبه إلى أن عددا من الدول العربية لم تظهر لها
كيانات سياسية حديثة إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وأنها كانت
محرومة كلية من فرص الانتشار الثقافى والتعليمى .

كما أننا لسنا فى حاجة إلى التنبه إلى أن مصر ، على الرغم من وقوعها
مثل الكثرة الغالبة من البلدان العربية تحت برائن الاستعمار الغربى ، و من قبل
، انضوائها فى جب التخلف والاستبداد العثمانى ، إلا أن حركة التعليم فيها
والثقافة ، كانتا ، قياسا إلى ما كان فى معظم الأقطار العربية ، فى وضع لا
بأس به على أية حال .

أما من الناحية التاريخية ، فهذا ما نحاول أن نقوم فيه بإطلالة سريعة . .

المنطلق العربى :

فيؤكد علماء الجغرافيا أن شعوب المنطقة العربية - قبل العرب والإسلام
- هم أساس وأصلا أقارب انفصلوا جغرافيا ، ابتداء من العراق إلى الشام إلى
الجزيرة العربية ، ومن مصر إلى المغرب أو السودان . والتوطن للمحلى
والمؤثرات الموضعية والتزواج الداخلى الذى حدث بعد ذلك ، لا يمكن أن ينتج
أكثر من ابتعادات محلية ضئيلة لا تغير من وحدة الأصل الدموى وتجانس
العرق فى كثير ، وإن تطورت اللغات والألسن ما بين سامى وحامى ، ويظل
العالم العربى أو بيت العرب الجغرافى الكبير هو " دوار العرب " بمعنى الأمرة
للموسعة التى تضم عدة أسر نووية أو خلوية (جمال حمدان : شخصية مصر ،
القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٤ ، ج٤ ، ص ٦٣٦) .

ومن هنا فقد كانت العلاقات بين مصر وسائر البلدان العربية منذ قيامها
الأول علاقات متكاملة ومتنوعة أشد التكامل ، وأوسع التنوع ، فهى علاقات
بالعرق والسلالة ، امتزجت فيها الدماء والعروق وألوان الثقافة والفكر واللفن
والعقيدة ، حتى اتخذت العروبة طابعها الحضارى العام ، وصارت محصلة

لفكر استوعب عقائد التوحيد منذ أن كانت إرهاباته الأولى في الجزيرة العربية وفي مصر ، وتتابع عليها الأديان المتلاحقة منذ أيام إبراهيم وأبنائه الأوائل حتى عصر الإسلام وعقيدته التي مثلت للتوحيد الحنيف . وقد اتسع نطاق هذه العروبة حتى شمل الأرض كلها من حافات جبال زاغروس ومياه الخليج العربى حتى أقاصى المغرب وشواطئ المحيط الأطلنطى ، فصارت كلها أرضا للعروبة مترابطة فيما بينها ، ومتصلة فى امتداد لا تكاد تتخلله أية جزر غير عربية أو غير معربة ، لا سيما بعد أن نطقت أرض العروبة كلها وشعوبها بلغة واحدة هى العربية (سليمان حزين : أرض العروبة ، رؤية حضارية فى المكان والزمان ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٩٣ ، ص ١٨٨) .

ومن الحقائق التاريخية المؤكدة أن إسماعيل هو أبو العرب العدنانيين ، وهو فى الوقت نفسه ابن إبراهيم العراقى من هاجر المصرية . ونعرف كذلك أن العرب العدنانيين هم أبناء إسماعيل من زوجة مصرية أيضا (جمال حمدان : مرجع سابق ، ص ٦٣٦) .

ونعرف أيضا من حقائق التاريخ أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم تزوج من مارية المصرية ، وهو القائل عن مصر لعرب الجزيرة إن " لكم فيها نمة ورحما " ، كما أن عمرو بن العاص هو القائل : " أهل مصر أكرم الأعاجم كلها . . . وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقرش خاصة ، ومن هنا تبرز تلك الحقيقة قوية ناصعة أن صلة مصر بالعرب صلة نسب ودم قبل أن تصبح صلة ديانة ولغة .

فإذا جئنا إلى مجال التعليم خاصة ، نجد لغة التعليم فى مصر ، مثلها مثل سائر البلدان العربية هى اللغة العربية ، واللغة كما نعلم هى مركب عقلى وفكرى له دوره الحاسم فى تشكيل طريقة التفكير وتوجيه المفاهيم والمعانى ، ومن ثم فإن التشارك فيها يعنى بالتالى تشاركا فى مثل هذه الأمور وما يجرى مجراها .

بل إن التشارك فى العربية كلغة تعليم يقيم جسرا مشتركا بين الأجيال المتتابة وبين الموروث الثقافى منذ قرون طويلة ، ومن المعروف أيضا أن التشارك فى الموروث الثقافى لابد أن يكون له دوره فى تشكيل الشخصية والعقلية .

ومن الملفت للنظر أن الشاعر المعروف أحمد عبد المعطى حجازى الذى يكتب فى الأهرام فى الوقت الحالى وقت كتابة الدراسة - سلسلة من المقالات تعكس تحفظه على المنحى العربى هو نفسه الذى أصدر عن دار الآداب ببيروت كتابا بعنوان (رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر) ، ١٩٧٩ ، وهى تلك الفترة التى اشتد فيها اللغط داخل مصر بتأثير الهجوم الكبير الذى شهدته بلدان عربية كثيرة ضد مصر بسبب توقيع القيادة السياسية فى ذلك الوقت لاتفاقية كامب ديفد ، مما دفع عددا من مفكرى مصر إلى الدعوة إلى " المصرية " بعيدا عن العروبة ، وكان على رأس هؤلاء توفيق الحكيم ، وحسين فوزى ، وكذلك لويس عوض الذى اعتبر القومية العربية من " الأساطير السياسية " .

المهم ، أن كتاب حجازى ضم عددا من الكتابات والكلمات لعدد من أبرز علماء ومفكرى وقادة مصر قبل ثورة يوليو ، يؤكدون فيها جميعا على المنطلق العربى ، فمن ذلك :

- ذكر مكرم عبيد (ص ٢٧٦) أن تاريخ العربية سلسلة متصلة الحلقات ، وإذا علمت أن رابطة اللغة والثقافة العربية فى هذه الأقطار (العربية) أوثق منها فى أى قطر من أقطار الأرض ، وأن التسامح الدينى نشأ وترعرع وما زال موجودا بين أصحاب الأديان كلها فى الجارات الشقيقة ، أيقنت أن المقصود بقولى " المصريون عرب " هو هذه الوشائج وتلك الصلات التى لم تقصمها الحدود الجغرافية ، ولم تنل منها الأطماع السياسية منالا ، على الرغم من وسائلها التى تنتزع بها إلى قطع العلاقات

بين الأقطار العربية والعمل لقتل الوحدة العربية بين أبنائها ، والسعى للترقة ، واضطهاد العاملين لتحقيق الوحدة العربية التي لا ريب في أنها أعظم الأركان التي يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة في الشرق العربي .

- وألقى زكى مبارك محاضرة في نادى المنتبى في بغداد فى أوائل نوفمبر ١٩٣٨ ، كان مما جاء فيها (ص ٢٩٩) أنه عربى أولا ومصرى ثانيا " ولو شئت لقلت أن أبى من أصل عربى صريح ، وأهل سنترى يعرفون ذلك ، وأقول إنى مصرى ، وما تسوغنى هذه النسبة ، فالمصريون عرب فى أقوالهم وأفعالهم وشمائلهم ودينهم ومذاهبهم " .

- أما الدكتور محمود عزمى السياسى القديم ورئيس تحرير جريدة السياسة فى إحدى فتراتنا ، وصاحب الدعوة إلى لبس القبعة تشبها بالغربيين فى فترة أخرى من حياته ، فقد كتب (ص ٣١٤) عن الرابطة العربية مؤكدا " إنها الرابطة الوحيدة التي يجب أن يستند إليها تطورنا المحتوم " .

- وكتب الأديب الشهير إبراهيم عبد القادر المازنى مؤكدا على أهمية الرابطة اللغوية العربية قائلا (ص ٣٢٩) : " لتكن طبيعة البلاد ما يشاء الله أن تكون ، ولتكن الأصول البعيدة المتغلغلة فى القدم ما شاعت ، فما دام أن أقواما لهم لغة واحدة فهم شعب واحد ، ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر - إلى الآن - على الأقل - إلا بالألفاظ ، هى وحدها أداة التفكير ، فلا سبيل إليه بدونها ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة ، ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى ومتى كان الأمر كذلك فكيف نكون إلا عربا كالعراقيين ، والسوريين ، والفلسطينيين ، والحجازيين ، واليمنيين ؟..... " .

ولم يقف الأمر عند حدود هذه الآراء والأفكار ، وإنما امتد إلى حقائق واقع ، فقد صارت بعض البلاد العربية بفعل وسائل المواصلات المستحدثة بعد الحرب

العالمية الأولى أقرب إلى عاصمة مصر من بعض بلاد الصعيد ، فتكشف الاتصال والاحتكاك فى المؤتمرات التى كثرت أو شهور الاصطيف أو الزيارات المنظمة أو الرحلات الرياضية والكشفية عن حقائق قومية بديهية كانت غائبة عن الأذهان أو طمستها الثقافة الحديثة أو حجبها الإقليمية ، فبعد أن كان المرء يذهب إلى فلسطين وسوريا والعراق ، وهو يظن أنه ذاهب إلى بلاد أجنبية ، إذا به يخرج من تجواله بأن " الجميع عرب فى ميولهم وطريقة تفكيرهم مع المصريين على السواء ، وأن هناك أمة عربية فعلت الأيام فيها الأفاعيل فيوقن على الرغم من ذلك أن هذه الأمة العربية تمتد من جبل طارق إلى بلاد الفرس وأن هذه الأمة ثابتة مهما كان فيها من انقسام صناعى ، ولكن هذا الانقسام لا يمكن ولن يمكن أن يكون أبديا ، ويحس أنه بعد ذلك ليس فردا من أمة لا يبلغ مجموعها إلا ثلاثة عشر مليوناً ، بل فرد من أمة مجموعها نحو ثمانين مليوناً ، كما قال محمد على علوبة السياسى المصرى الشهير فى خطبته المنشورة بالمقطم فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٠ (نوقان فرقوط : تطور للفكرة العربية فى مصر ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ٢٦٠) .

ووسط مظاهر الحفاوة التى أحيط بها فريق خريجي الجامعة المصرية الرياضى أثناء زيارته لدمشق ، لم يتمالك أحد أعضائه إلا أن ينبرى قائلاً : " إننا نشعر من صميم نفوسنا أننا لسنا غرباء : نحن إخوان النقوا بإخوانهم " . وكانت أحداث فلسطين قد بدأت ، أثناء هذه الاتصالات ، فيما تناقلته الصحف من أنبائها تشد إليها الانتباه ، وكان عاملا الدين والقومية ، وهما فى قضية فلسطين بالنسبة للعرب شئ واحد ، من أهم العوامل التى تضافرت لجذب مصر إلى الوعي بشخصيتها العربية (المرجع السابق ، ص ٢٦٠) .

العطاء العلمى فى العصور الإسلامية :

لم يكن العرب المسلمون الذين رافقوا عمرو بن العاص فى فتحه لمصر مجرد مجموعة من العسكر ، بل كان منهم عدد من القراء (أى قارئى القرآن الكريم) والمحدثين والمفسرين ، إلى جانب كونهم مجاهدين (أحمد نصيف الجنابى : الدراسات اللغوية والنحوية فى مصر منذ نشأتها حتى نهاية القرن الرابع العجرى ، القاهرة ، دار التراث ، ١٩٧٨ ، المقدمة) .

وتكاثرت الوفود العلمية إلى مصر - بعد ذلك - من جميع أقطار العالم الإسلامى المعروف آنذاك ، ونشأت - منذ القرن الأول الهجرى - ثلاث حركات علمية واضحة المعالم متميزة القسمات :

الأولى : حركة لغوية ونحوية متمثلة فى نشاط القراء فى ميدانى القراءات والتفسير .

والثانية : حركة تتصل برواية الحديث ونقله .

والثالثة : فقهية ، كانت نواتها جماعة من الصحابة الممتازين فكريا .

وإلى جانب هذه الأنماط الثلاثة ، وبتأثيرها ، نشأت حركة جديدة كان مظهرها الأول نشاط جماعة من شبان مصر لدراسة الأنماط الثلاثة خارج مصر ، ونشأت بعد ذلك مدارس تتوزع على هذه الأنماط كانت نتيجة لتطویر تلك المناهل الأولى .

ولعل جميع القراء فى بلدان العالم الإسلامى ، جميعا ، العربى منها وغير العربى ، يعرفون واحدا من أقدم الذين اختطوا طريقا فريدا فى علم القراءات الخاصة بالقرآن وأصبح معلما على امتداد عصور التاريخ الإسلامى ، ألا وهو " عثمان بن سعيد بن عدى المعروف بـ " ورش " ، وهو مصرى صميم أصل .

أجداده من الأقباط من موالى آل الزبير بن العوام ، المتوفى عام ١٩٧هـ .

محمد مصطفى : الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧ ، ص ٨٥) .

وفى علوم الفقه ، عرفت مصر " الليث بن سعد " وهو يعد مفخرة لمصر
إذ كان ميلاده ببلدة قلقشندة سنة ٩٤ هـ ، وإن كان أصله يمتد إلى بلاد فارس
، وأهل هذا العلم يعرفون جيدا منزلته التى تفوق فيها على كثيرين وجعلته
مقصدا لطلاب العلم من بلدان عربية مختلفة .

وقد أحصى السيوطى فى كتابه (حسن المحاضرة ٠٠) فى جزئه الأول
من كان بمصر من أرياب المعقولات والأطباء والمنجمين ، فعد أول ما عد
بليطان " ، وقال إنه طبيب نصرانى كان بديار مصر ومات سنة ١٨٦ هـ ثم
عد بعده مباشرة سعيد بن نوفل الطبيب النصرانى الذى كان فى خدمة أحمد بن
طولون (المرجع السابق ، ص ١٠١) .

وفى كلام السيوطى برهان على أن العطاء المصرى لم يصدر فقط ، فى
نروة العصور الإسلامية ، عن مسلمين مصريين ، وإنما صدر كذلك من
مصريين أقباط .

ولم تكن العلاقة بين مصر والبلدان العربية الأخرى تسير فى اتجاه واحد
هو اتجاه العطاء ، فقد فتحت أبوابها لعدد من علماء العرب والمسلمين فى بلدان
أخرى لتعقد عليه العطايا المادية التى تسير لهم سبل العطاء العلمى وتشجعهم
على بذل المزيد .

ومن هنا فإن الناصر صلاح الدين كان إذا بلغه عن شيخ رواية عالية ،
وكان ممن يحضر عنده سمع منه وأسمع أولاده ومماليكه ، ويأمرهم بالقعود
عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن لم يكن المحدث ممن يحضر عنده ولا
يطرق أبواب الملوك سعى إليه (المرجع السابق ، ص ٣١٥) .

ومن أمثلة ترغيب العلماء فى الحضور إلى مصر ما فعله العزيز بن
صلاح الدين بالحسن بن الخطير النعمانى وما كان من إجراءاته عليه ستين دينار
أو مائة رطل خبز فى الشهر وخروفا وشمعة كل يوم . وكذلك حديث تاج
الدين ألبى اليمن واختصاصه بفرخ شاه بعد أن عرف فضله فى مجلس القاضى

الفاضل ، فإنه ألزم صحبته إلى أن مات فاتصل بعده بتقى الدين أخى فرخ شاه فكثرت أمواله .

وقد ظهر فى مصر عدد من المصريين الذين جمعوا الحديث ودونوه أسوة بغيرهم من العلماء ، وأقدم كتاب مصرى وصلنا فى الحديث هو كتاب (الجامع فى الحديث) لعالم مصرى يعد من أوائل مدونى الحديث فى العالم الإسلامى وهو عبد الله بن وهب ، وقد عثر على جزء مخطوط من هذا الكتاب فى مدينة إيفو منذ ما يقرب من خمس وسبعين عاما ، ويعد هذا المخطوط من أقدم المخطوطات فى جميع مكتبات ومتاحف العالم ، حيث يرجع تاريخ كتابته إلى القرن الثالث للهجرة ، وعبد الله بن وهب هذا مصرى قرشى بالولاء ولد بمصر عام ١٢٥هـ (محمد كامل حسين : الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٣٧) .

وابتدع علماء مصر الإسلامية فى التاريخ فنا لم يسبقهم أحد إليه وهو " فن الخطط " ، إذ لما أمر عمرو بن العاص أن تكون مدينة القسطنطين مقسمة حسب القبائل العربية ، وأن تكون لكل قبيلة خطتها بالقسطنطين أو الجزيرة ، جاء المؤرخون فى القرن الثالث للهجرة يؤرخون لهذه الخطط ، وشاع هذا النمط من التاريخ كما رأينا فى خطط المقرئى ، وفى العصر الحديث الخطط التوفيقية لعلى مبارك (المرجع السابق ، ص ٥٩) .

ونبغ فى العصر الفاطمى فى علوم الطب (على بن رضوان) المولود بالجزيرة ، سمع به الخليفة الفاطمى فاستخدمه وجعله رئيسا على سائر المتطببين ، وذاعت شهرته فى البلاد الخارجية ، فكاثبه أطباء العالم الإسلامى يطلبون رأيه فى بعض الأمور الطبية أو لمناظرته فى بعض المسائل ، وانبرى لابن رضوان أحد أطباء بغداد وهو ابن بطلان لمناظرته والرد على ما جاء فى كتبه ، وكذلك فعل ابن رضوان فى كتب ابن بطلان ، حتى إن ابن بطلان رأى أن

يفد على مصر للاجتماع بمنافسه ابن رضوان ، فأقام بها ثلاث سنوات اشتمت فيها مناظراته العلمية مع منافسه على مشهد ومسمع من أطباء مصر ، فكانت هذه المناظرات ثروة علمية أفادت دراسة الطب في هذا العصر ، فقد تعرضت المناظرات لآراء الأطباء القدماء والمحدثين أمثال حنين بن إسحق وعلى بن الطيب أستاذ ابن بطلان وابن زكريا الرازي وغيرهم ، بل وضع ابن رضوان كتباً في الرد على الأطباء القدماء كان لها أثرها في تنبيه الأطباء والفلاسفة إلى الآراء الجديدة التي نادى بها ابن رضوان ومقارنتها بآراء خصومه من القدماء أو المعاصرين (المرجع السابق ، ص ٦٩) .

وأخذ تلاميذه أمثال افرائيم بن الزقان وابن الحسن بن إسحق في نشر آراء أستاذهم فازدهرت الدراسات الطبية على أيديهم بحيث استطاعت مصر أن تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية في العلوم الطبية ووفد عليها الأطباء للأخذ عن هؤلاء العلماء .

ومن أكثر ما يستلفت النظر أن القيروان - كمركز من مراكز الحضارة العربية الإسلامية - ولدت في الفسطاط ، وأعظم فقهاء إفريقية (تونس) - مثل أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون - درسوا الفقه على شيوخ الفسطاط ، وخاصة عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز ، فقامت مدرسة القيروان على أصول مصرية ، والقيروان هي أم مدائن المغرب الإسلامي (حسين مؤنس : مصر ورسالتها ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٣ ، ط ٤ ، ص ٤٤) .

وتشاء الظروف أن تكون الغزوة الهلالية - وهي التي وضعت الأساس المكين لعروبة الجزائر - صادرة من مصر ، فمن مصر خرج بنو رياح والمعقل والزواودة ، وانتشروا بعد ذلك في نواحي تونس والمغرب الأوسط ، أي الجزائر ، فمدوا بذلك خيوطا بشرية وحضارية زانت البلدين قريبا (للمرجع السابق ، ص ٤٧) .

وكانت كتب مصر تتسرب إلى الجزائر بكل طريق ، ومن أغرب ما تكشف عنه البحث أن كل كتابات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده تسربت إلى الجزائر وقرئت فى حينها ، وعلى هذه الكتب قامت فى الجزائر حركة الإصلاح التى قادها عبد الحميد بن باديس ، ومما يجهله كثيرون أن محمد عبده زار الجزائر من منفاه فى باريس واجتمع بعلمائها وأخذوا عنه ، فكانت زيارته القصيرة للجزائر من أكبر بواعث النهضة الفكرية الجزائرية . (المرجع السابق ، ص ٤٨) .

ولا تعنى هذه الوقائع أن مصر لم تقم بهذا الدور إلا فى عصور الإسلام ، ولأنها وقعت فى طريق الحج ، ذلك أن المسيحية ، ثم الإسلام انتشرا فى السودان الشمالى عن طريق مصر ، فقد دخلت المسيحية بلاد النوبة تنفيذاً لسياسة الكنيسة المصرية ، ولقد جاهد أحبار هذه الكنيسة جهادا طويلا حتى نشروا المسيحية فى ممالك السودان الثلاث فى العصور الوسطى ، وهى - بحسب ترتيبها من الشمال إلى الجنوب - النوبة ثم مقرة ثم علوة . وقد كتب الرحالة المصرى كوسماس المعروف بالبحار الهندى بين سنتى ٥٣٧ و ٥٤٧ الميلاديتين يقول إن الكنائس المسيحية منتشرة بين النوبيين وكذلك الأساقفة والرهبان والشهداء ، ولم يكن فى المسيحية إذ ذاك مواضع حج يرحل إليها الناس ، وإنما الحقيقة هى أن المصريين هم الذين أوغلوا فى السودان ونشروا المسيحية فيه (المرجع السابق ، ص ٥٣) .

ومن المعروف أن مصر استطاعت أن تمد مظلتها السياسية شرقا ، فأدخلت الحجاز والشام فترات طويلة فى فلكها ، وهذه الامتدادات الشرقية المصرية لم تكن سياسية فحسب ، بل كانت ثقافية أيضا ، لأن مصر كانت قد تحولت إلى قاعدة الثقافة العربية والعلم الإسلامى ، فكانت تنتشر علمها فى كل ناحية وصلت إليها ، وهى قد أزلت الحدود السياسية بينها وبين الشام والحجاز واليمن ، فأصبح رجال العلم من أهل تلك البلاد يفدون إلى مصر ليتعلموا أو

ليعلموا ، وكلما تقدم الزمن وتزايدت الأخطار على البلاد المشرقية : العراق والشام وجزيرة العرب تحولت مصر إلى ملجأ للعلم الإسلامي كله ، وفر أصحاب الكتب بكتبهم إلى بلادنا (المرجع السابق ، ص ١٢٥) .

فى العصر الحديث :

وأُتحت سبل الاتصال الحديثة لكثير من طلاب العلم من البلدان العربية أن يقصدوا مصر ، حيث يمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات :

أ- الذين يدرسون على نفقتهم الخاصة .

ب- الذين يدرسون على نفقة حكوماتهم .

ت- الذين يدرسون على نفقة الحكومة المصرية

فإذا عرفنا أن الكثيرة الغالبة من الدول العربية حتى منتصف القرن العشرين كانت فقيرة ، بينما كانت مصر ، لا نقول ثرية ، ولكنها على أية حال كانت أيسر حالا ، لتبقنا أن الفئة التى غلبت أكثر من هذه الفئات الثلاث ، هى تلك التى كان أفرادها يدرسون على نفقة الحكومة المصرية .

وفى الإحصاء الذى أورده ساطع الحصرى عن سنة ١٩٤٨ (حولية الثقافة العربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، م ١ ، ١٩٤٩ ، ص ٣٩) يجمال أعداد هذه الفئات الثلاث ، لكن يصنفهم وفقا لجنسياتهم كما يلى :

| | | | | | |
|-----------|-------|-----|----------|-------|-----|
| أردنيون | ----- | ١١٩ | سعوديون | ----- | ٣٥٠ |
| سوريون | ----- | ٣١٤ | عراقيون | ----- | ٣٢٩ |
| فلسطينيون | ----- | ٦٣١ | لبنانيون | ----- | ٩٦ |
| يمنيون | ----- | ٤٧ | مغاربة | ----- | ٢٢٧ |
| حضارمة | ----- | ٢٩ | كويتيون | ----- | ٦٤ |
| بحرانيون | ----- | ١ | عديون | ----- | ٢٧ |

أى بجملة مقدارها ٢٢٣٤ طالبا .

ولم تنافس مصر في هذا الصدد إلا لبنان ، حيث قصدته في الفترة نفسها ٢٠٥٩ طالبا ، بينما قصد العراق ١٢٦ ، وسوريا ٢٦٤ طالبا .
 وبلغ عدد المعلمين والأساتذة المصريين الموفدين إلى البلدان العربية في العام ١٩٥٢/١٩٥١ ما مجموعه ٣٣٢ فردا ، علما بأن الكثرة الغالبة من هؤلاء كانت الحكومة المصرية هي التي تدفع مرتباتهم ، وقد توزعوا على البلدان العربية وفقا لما يلي (ساطع الحصرى ، حولية الثقافة العربية ، م٣ ، ص (٣٧١) :

| | | | | | |
|----|-------|-------|----|-------|----------|
| ٥ | ----- | لحج | ٩٩ | ----- | السعودية |
| ١ | ----- | عدن | ٥٢ | ----- | العراق |
| ٤ | ----- | غزة | ٤٨ | ----- | ليبيا |
| ١٥ | ----- | لبنان | ٤١ | ----- | سوريا |
| | | | ٩ | ----- | البحرين |

أما اختصاصات هؤلاء الموفدين ، فكانت كما يلي :

| | | | | | |
|----|-------|-----------------------|----|-------|-------------------------|
| ١١ | ----- | تعليم التجارة | ٦٧ | ----- | تعليم المواد الاجتماعية |
| ١٠ | ----- | تعليم التربية البدنية | ٤٧ | ----- | تعليم اللغة العربية |
| ٩ | ----- | تعليم الرسم | ٣٧ | ----- | تعليم العلوم والرياضيات |
| ٨ | ----- | تعليم تدبير المنزل | ٢٨ | ----- | تعليم الزراعة |
| ٦ | ----- | الإدارة والتفتيش | ٢٧ | ----- | تعليم الصناعة |
| ٢ | ----- | اللغة الفرنسية | ٢٤ | ----- | تعليم اللغة الإنجليزية |
| | | | ٤ | ----- | التعليم الجامعي |

هذا عدا من أوفدهم الأزهر .

وفى بيانه أمام مجلس الأمة عام ١٩٥٧ ، ذكر كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم في ذلك الوقت أن عدد المدرسين المصريين في البلاد الشقيقة زاد من ٦٩٠ مدرس ومدرسة في سنة ١٩٥٣ إلى ١٦٧٦ مدرس ومدرسة في

عام ١٩٥٦ ، وتوقع أن يزيد العدد فى العام التالى ، أى ١٩٥٨ إلى ٢٥٠٠ مدرس ومدرسة (وزارة التربية والتعليم : التربية والتعليم فى خمس سنوات ، ١٩٥٧) .

وفى فترة تالية ذكر كتاب وزارة التعليم العالى (التعليم العالى فى ١٢ عاما ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٢) أن عدد المدارس المصرية التى أنشئت فى السودان بلغ ٢٠ مدرسة ، ما بين ابتدائية وإعدادية ، وثانوية ، وكذلك جامعة شعبية .

أما عدد المعلمين المعارين فقد وصل وفقا للمصدر السابق إلى ٤٨٨٢ مدرسا ومدرسة فى العام ٦٣-١٩٦٤ .
وذكر كمال الدين حسين فى البيان نفسه أن مصر أنشأت مدرسة إعدادية ثانوية بمدينة الرباط بالمغرب ، وطائفة من المدارس الابتدائية والثانوية فى السودان .

ونظرا لأن قطاع غزة من فلسطين ظل مسئولية مصر منذ النكبة الأولى ١٩٤٨ ، فقد أخذت مصر على عاتقها أن تقوم بالكامل بمهام تقديم الخدمة التعليمية لأبناء القطاع ، وفقا للنظام نفسه الذى كان يعيشه أبناء المصريين فى مصر . ولما كان التعليم يقدم فى مصر مجانا ، فإنه كان كذلك فى هذه المنطقة العزيزة .

وتشير المفكرة الإحصائية لوزارة التربية والتعليم المصرية ، عن العام ١٩٦١/١٩٦٠ إلى جملة الحقائق التالية عن التعليم المصرى المقدم لأبناء غزة :
- بلغ عدد مدارس تعليم المرحلة الأولى ٧٨ مدرسة ، كان منها خمسون مدرسة معانة ، و ١٩ مدرسة رسمية ، وتسع مدارس فقط غير معانة ، وضمت هذه المدارس ٥٢٩٦٠ تلميذا وتلميذة ، غير المعان منهم لم يزد عن ١٧٢٤ تلميذا وتلميذة . أما المدرسون فقد بلغ عددهم ١١٢٤ مدرسا ، كان منهم ٤١ فقط لا تتحمل الحكومة المصرية مرتباتهم .

- أما عدد المدارس الإعدادية فقد بلغ ٤٢ مدرسة ، ٩ مدارس رسمية ، و ٣٢ مدرسة معانة ، وواحدة فقط غير معانة ، وبلغ عدد تلاميذ وتلميذات الإعدادى ١٣٥٠٨ ، غير المعانين منهم لم يزيدوا عن ١١٠ تلميذا وتلميذة.

- وضمت غزة كذلك مدرستين فنيئتين واحدة تجارية والأخرى زراعية ، وكنتهما حكوميتان ضمنا ٤٧٠ تلميذا وتلميذة .

- وضمت أيضا مدرسة معلمين عامة بها ٢٥٧ تلميذا ، ومدرستين للمعلمات ، بهما ١٤٧ تلميذة .

- أما التعليم الثانوى فكانت هناك ثمانى مدارس حكومية ، ٦ للبنين ضمت ٦٧٦٧ تلميذا ، وثلثان للبنات ضمنا ١٨٢٩ تلميذة، هذا فضلا عن أربع مدارس لم تكن معانة .

وأكد كمال الدين حسين ، فى بيانه المشار إليه سابقا ، أن عدد الطلبة الفلسطينيين ، سواء المقيمين فى مصر أو غزة ، الذين ترعاهم الحكومة المصرية ، قد زاد عددهم من ٣٥,٠٩٤ طالب وطالبة فى سنة ٥٣/٥٢ إلى ٦١٧٦٦ فى عام ١٩٥٦/٥٥ ، وبلغت جملة المنصرف على مدارس اللاجئين بقطاع غزة فى السنة ١٩٥٦/٥٥ مبلغ ٥٦٥,٠٢٤ ، وهو مبلغ غير قليل بمقاييس هذا الزمان .

وكانت مصر تقدم منحاً دراسية لطلاب التعليم من غير المصريين ، حيث كانت هذه المنح ٣٣٢ منحة عام ١٩٥٢ ، زاد عددها ليبلغ ٣٧٩٢ منحة فى نهاية العام ٦٣-١٩٦٤ (التعليم العالى فى ١٢ عاما ، ص ١٣٢) .

وتذكر وثائق وزارة التعليم العالى أن الوزارة تلقت فى العام ٦٣-١٩٦٤ ما يقرب من عشرة آلاف طلب للالتحاق بمعاهد التعليم المصرية من غير المصريين ، أمكن إلحاق ٦٢٦٦ منهم فى مختلف المدارس والمعاهد والكلليات ،

كان منهم ٣٤٨٤ من الوطن العربي في كليات الجامعات المصرية ، و ٢٠٨ في المعاهد العليا ، و ٢١٠٠ في مدارس التعليم العام والفنى .
وقد وصل عدد الوافدين من قدامى وجدد الذين التحقوا بمعاهد مصر ومدارسها وكلياتها في العام الدراسي ٦٣-١٩٦٤ إلى ٢٤٤٩٨ طالب في مختلف مراحل التعليم ، ما عدا الأزهر ، (المرجع السابق ، ص ١٥٠) ، كان منهم ١٦٥٢٧ من الوطن العربي ، منهم ٣٥٠ بالدراسات العليا ، و ٩٨١٥ بالجامعات ، و ١١٦٢ بالمعاهد العليا ، و ٥٢٠٠ بالتعليم العام والفنى .
وأنشأت وزارة التعليم العالى ناديا للطلاب الوافدين ، كان يقوم بالعديد من الأنشطة الثقافية والترفيهية لهم ، ولقد أتاحت لكاتب هذه السطور أن يكون مستشارا ثقافيا لنادى الطلبة الوافدين بمنشئة البكرى في أوائل السبعينيات من القرن الماضى .

وحظيت كلية غوردون بالسودان بنخبة ممتازة من الأساتذة المصريين الذين جمعوا بين العلم والوطنية ، فشاركوا في تعليم السودانيين وإنكاء الروح الوثابة المتطلعة إلى العلم والحرية كانوا سندا لحركة الوعى الوطنى التى كان الطلبة السودانيون في كلية غوردون من طلائعها بما نالوا من معرفة فتحت أمامهم باب الأمل في التقدم وللحاق بركب الأمم المتحضرة . ولعل هؤلاء الأساتذة لم يحاضروا أولئك الطلبة في علم السياسة ولم يلقوا عليهم دروسا في الوطنية أو القومية ، ولم يحدثوهم عن مسألة تقرير المصير مباشرة في تلك الفترة المبكرة من الزمن ، ولكنهم دون شك أنكوا روحا شابة وبعثوا عزيمة وزادوا نار الثورة ضد الاستعمار ، وكان هؤلاء الأساتذة يصدرن عن شئ يجدونه في مصر منذ العقد الأول من القرن العشرين ، وكان عدد هؤلاء الأساتذة كبيرا في الكلية فقد بلغ خمسين مدرسا أو يزيد ، وكان أول ناظر لكلية غوردون الأستاذ أحمد هدايت (محمد سليمان : دور الأزهر في السودان ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص ١١٥) .

دور الأزهر :

وإذا كان الفاطميون قد بنوا الأزهر ليكون قاعدة علمية للشريعة ، إلا أنه بدءاً من العهد الأيوبي ، تحول إلى أن يكون معهداً للتعليم الإسلامي يقصده طلاب من مختلف أنحاء العالم ، وخاصة من البلدان العربية بفضل سهولة التعلم باللغة العربية ، وأصبح الأزهر معهداً عالمياً وجامعة مصرية المكان ، إسلامية عربية المحتوى والطلاب في الغالب والأعم .

وكان من آثار عموم الأزهر قديماً حاراته وأروقته ، والحارة في الأزهر يعبر بها عن الحجرات التي يأوى إليها طلابه المغتربون ، والرواق ما بين الأعمدة من الفضاء الذي يدرس فيه العلماء لطلابهم ، أو يقيمون فيه ، ومعهم خزائنهم ودواليبهم ، وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية بيان لستة وعشرين رواقاً ، وقد دخلت ضمنها الحارات كما يتبين من أسمائها :

١- رواق الصعايدة ٢- والحرمين : مكة والمدينة

٣- والذكارنة ، وهو خاص بأهل تكرور وسنار ودارفور ووادي وغيرها

٤- والشوام ٥- والجاوة ، وهو خاص بالجاوة وغيرهم من أهل جزر

الهند الشرقية

٦- والسليمانية ، وهو لأهل أفغانستان وخراسان

٧- والمغاربة ، وهو خاص بأهل شمال إفريقية وهو رواق كبير هام .

٨- والسنارية ، أنشأه محمد علي ٩- والأتراك

١٠- والبرنية لأهل برنو وما جاورها ١١- والجبوتية لأهل شاطئ الصومال

١٣- والأكراد ١٤- والهنود

١٥- والبغدادية من العراق

١٠٠٠ إلى غير هذا وذلك من أروقة وحارات .

ومن المعروف أن التعليم بالأزهر لم يكن فقط مجانيا ، بل كانت الكتب توزع مجانا ، فضلا عما اصطلح على تسميته " بالجرانية " ، وهى تعنى الخبز بصفة أساسية .

ووفد على الأزهر من البلدان العربية ، فى الفترة من عام ٥٢ إلى ١٩٥٧ الأعداد التالية على التوالى : ٢٣٣١ - ٢٦٣١ - ٣٨٢٥ - ٣٩٧٤ - ٣٠١٦ - ٢٧٧١ طالبا .

أما فى الفترة من عام ١٩٥٨/٥٧ حتى ١٩٦٤/٦٣ فقد تطورت الأعداد إلى ما يلى على التوالى : ٢٠٣٩ - ٢٠٨٢ - ٢٢١١ - ٢١٩٣ - ١٨٩٨ - ١٩٠٤ - ٢٢٩٠ (وزارة الأوقاف : الأزهر ، تاريخه وتطوره ، ١٩٦٤ ، ص ٥٧٠) .

ومن حيث الإنفاق المالى ، فقد بلغ ما تم إنفاقه على الطلاب الوافدين بالأزهر عام ١٩٦٤/٦٣ مبلغ ٣٧٥٠٠ جنيها ، وكان هذا المبلغ ١٥٠٠٠ عام ١٩٥٣/٥٢ (المرجع السابق ، ص ٥٦٦) .

وفضلا عن ذلك كان الأزهر يرسل مبعوثين من خريجه إلى مختلف البلدان من أجل نشر المعرفة الإسلامية ، حيث بلغ عدد من أرسلهم عام ١٩٦٣/٦٣ ١٩٦٤ ٣٨٨ مبعوثا ، وكان عددهم عام ١٩٦١/٦٠ هو ٢٠٥ ، علما بأن هؤلاء لم يقتصرُوا فقط على البلدان العربية ، بل كذلك بلدانا أخرى (المرجع السابق ، ص ٦٠٥) .

ويحكم العروة الوثقى بين مصر والسودان ربما يكون من المفيد أن نسوق هذا البلد الشقيق مثلا لما كان للتعليم المصرى على وجه العموم ، وللأزهر على وجه الخصوص من آثار تربوية بارزة .

فقد كان من مسئولية الشيخ محمد عبده عندما كان مفتيا لمصر فى عهد الخديوى عباس الثانى أن يختار قاضى قضاة للسودان ، فكان يختار المبرزين من علماء الأزهر ، ويكفى أن نشير إلى الشيخ مصطفى المراغى ، الذى أصبح

فيما بعد شيخا للأزهر فكان متشربا بأفكار محمد عبده الإصلاحية مما جعله يحرص - بقدر الإمكان - أن تعرف بعض هذه الأفكار طريقها إلى التعليم السوداني .

وكان للشيخ مصطفى المراغى دور كبير فى تطور المعهد العلمى فى أم درمان ، حيث كان وثيق الصلة بالشيخ أبى القاسم مؤسس المعهد الذى استعان به مرارا فى كثير مما يهم المعهد فى عهده الأول (دور الأزهر فى السودان ، ص ١١٣) .

وفى عام ١٩٠١ ، أى بعد سنتين من اتفاقية الحكم الثنائى بين بريطانيا ومصر عين الحاكم البريطانى لجنة من بعض علماء السودان تكون مهمتهم استشارية له . ورأت اللجنة أن ترسل بعوثا سودانية إلى الأزهر لزيادة حصيلة الطلاب من العلم ليعودوا ويتلوا مهنة التدريس فيها ، لكن الحاكم البريطانى لم يكن راضيا عن هذا رأى اعتقادا منه بأن ذهاب السودانين للأزهر وتلقيهم الدراسة هناك قد يجعلهم يتشربون بأراء وأفكار معادية للإدارة البريطانية فى السودان ، ولكنه مع ذلك كان يفضل إرسالهم إلى الأزهر على أن يؤتى بعلماء مصريين من الأزهر للتدريس فى السودان . وأخيرا اتفق على حل وسط وهو إعادة تنظيم وتطوير التعليم الدينى بجامعة أم درمان الكبير (المرجع السابق ، ص ١٢٧) .

ولم يتح للأزهر أن يقوم بدوره إزاء المعهد بفعل المعارضة الإنجليزية إلا أواخر عام ١٩٤٧ حيث جاءت بعثة مصرية مكونة من خمسة من أوائل الشهادات الأزهرية وخيرة مدرسيه للعمل بالتدريس فى المعهد العلمى ، وكان علماء الأزهر الذين وفدوا بعد ذلك على التوالى أهم العوامل فى نهضة المعهد الحديثة وتطويره إلى جامعة أم درمان الإسلامية ، أسهموا فى تعديل المناهج وطرق التدريس ونظام الامتحانات وأدخلوا الأعمال التحريرية والتطبيقية

وأنعشوا المحاضرة والخطابة والإنشاء وأفاد المعهد منهم خيرا كثيرا (المرجع السابق ، ص ١٣١) .

وعلى الرغم من محاولة الاحتلال البريطاني المبادعة بين الأزهر والتعليم الدينى فى السودان الفترة المشار إليها إلا أن د . كامل الباقر صاحب اليد الطولى فى نشأة جامعة أم درمان الإسلامية يؤكد أنه عندما كان طالبا يدرس فى المعهد العلمى بأمر درمان وجد أن المعهد كان يسير وفقا لفلسفة الأزهر وخططه ومناهجه ، وكانت كل الكتب التى يدرسونها على وجه التقريب هى تلك التى يدرسها الطلاب فى الأزهر ، وكانوا يقرأون مجلة الأزهر لكتاب شباب صاروا أئمة فيما بعد مثل الدكتور محمد البهى ، وعبد الحليم محمود ومحمود حب الله وغيرهم " ٠٠٠ وهكذا نستطيع أن نقول أننا درسنا فى الأزهر على بعد ٠ لم نجلس إلى حلقاته ولم نلتحق بكلياته . كنا بعيدين عنه فى المكان وقريبين منه بقلوبنا وفكرنا وعواطفنا . كان أبناء السودان يهاجرون إلى قاهرة المعز طلبا للعلم على الرغم من الحواجز التى وضعها الاستعمار فى طريقهم . كانوا يتسللون من خلال الأسوار إلى حدود مصر وكانهم لاجئون سياسيون تطاردهم أعين الرقباء ٠٠٠ (كلمة كامل الباقر فى الكتاب التذكارى بمناسبة العيد الألفى للأزهر ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٨٠) .

ومع وجود مساجد كبرى فى بعض البلدان العربية تقدم التعليم الدينى ، إلا أن الأزهر كانت له آثاره على كثير منها ، ونسوق مثلا لذلك جامع الزيتونة بتونس ، فقد زاد فى قوة انجذاب الزيتونيين إلى الأزهر فى القرن الثانى عشر الهجرى أن حفلت مصر بمقدم أساتذة فى البلاد الشرقية بلغت سمعتهم عنان السماء ، يعتبر فى مقدمتهم شهرة وعلو مقام الحافظ محمد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس ، فقد تسابق الناس للأخذ عنه ، وتزاحموا على مجالس إملاته حتى كان القاصدون إلى الحج ، ولو من غير خاصة الطلبة يفتنمون إقامتهم بمصر عابرين لحضور مجالسه الجامعة ويكتب لهم الشهادة بالسماع ،

والإجازة ، وبذلك شرعت الرواية عنه ، وانتشر خطه فى الإجازات والإثبات وكتب السنة المقروءة عليه ، ومن أخص تلاميذه من شيوخ الزيتونة الشيخ عمر ابن المؤدب ، والشيخ محمد بن حمودة الصفار ، وأبناء الشيخ الغريانى ، بل إن عامة طلبة الزيتونة فى ذلك العصر يعتبرون طلبة له ، لأنه كتب فى إجازته لأبناء الشيخ الغريانى : كذا أجزت لطلبة العلم الملازمين فى حلقة دروس والدهم وسائر أحبائهم وأصحابهم ممن فيه أهلية التحمل لهذا العلم " (محمد الفاضل بن عاشور : امتزاج الزيتونة بالأزهر ، فى : التوجيه الاجتماعى فى الإسلام ، من بحوث مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج ٤ ، ص ١٠٣) .

وكان من أجل الراحلين من الزيتونة إلى الأزهر فى القرن الثالث عشر : الشيخ مصطفى بن خليل ، فقد كان أكمل تحصيله بالزيتونة وسمى عدلا بتونس ، ثم سافر إلى مصر ، فقرأ بالأزهر على الشيخ إبراهيم السقاء ، والشيخ عيش ، والشيخ الإنبابى ، وأجازه الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الطهطاوى ، ويوجد نص إجازته له بخطه فى دار الكتب المصرية ، ورجع الشيخ مصطفى إلى تونس فى أواخر القرن الثالث عشر ، وسمى مدرسا من الطبقة العليا بجامعة الزيتونة ، وعلت منزلته ، وأخذ عنه وتخرج به كثير من علماء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى (المرجع السابق ، ص ١٠٤) .

ويطول بنا المقام لو حاولنا استقصاء ما كان للأزهر من دور فى نشر المعرفة الدينية واللغوية العربية بين أبناء الدول العربية ، سواء بإرساله البعث الدعوية والتعليمية إليهم ، أو فى فتح أبوابه لمن يجئ إلى مصر طلبا للمعرفة الدينية التى كان علماء الأزهر يفيضون بها على من يقصدهم من خارج مصر ، كما هو الأمر بالنسبة للمصريين ، بغير تمييز عرقى أو مالى أو اجتماعى ، وإنما هى أمثلة ، على قلتها ، إلا أنها تؤكد حقيقة دور الأزهر بغير شك .

بين الاستمرار والإنقطاع :

آفة العمل التعليمى فى البلدان العربية ، هى عدم استقلاليته ووقوعه غالبا فى قبضة النظام السياسى ، ومن هنا يجئ تعرضه للعواصف السياسية من حين لآخر ، فما أن تتوتر العلاقة بين مصر وأحد البلدان لسبب أو آخر ، حتى يكون العمل التعليمى من أوائل من يدفعون الثمن ، مع أن المفروض أن يستمر قائما ، ولو تنبه القوم إلى هذا لأسس العمل التعليمى للكثير من قوى الربط وتمتين العلاقات . ويصدق هذا بصفة خاصة فى الفترة الناصرية ، حيث كانت العلاقات المصرية العربية عرضة لكثير من الاحتقان والتوتر والإنقطاع بين مصر وبين هذا البلد أو ذاك ، فإذا كان هناك معلمون مصريون يعملون خارج مصر ، تأمرهم الحكومة المصرية بالعودة ، أو تسحب من كانوا موجودين فيها ، وقد تكون مثل هذه الخطوة من جانب البلد العربى نفسه ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

وفضلا عن ذلك فإن أقوى ضربة أصيب بها الدور المصرى هو ما أعقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، فقد علت أصوات متعددة داخل مصر تقول بأننا بذلنا الكثير للعرب دون نتيجة ، وأنه آن الأوان لإمساك اليد عن هذه المساعدات الضخمة .

وكان من مظاهر هذا ، استثناءات كان يتمتع بها الطلاب العرب فى مصر ، فى القبول بمعاهد التعليم المصرية ، بدأ إلغاؤها .

وبدأت أصوات تطالب بأن يدفع الطلاب العرب مصروفات أجر تعليمهم ، وتدرج هذا حتى أصبحت هذه المصروفات باهظة فى السنوات الأخيرة .

صحيح ان ما أوردنا أمثلة له يؤكد أن العمل المصرى العربى فى التعليم قد انطلق منذ قرون ، كما أكدنا ، من موقف إيمان وعقيدة ، إلا أننا فى الوقت نفسه لا نستطيع أن نغض الطرف عما تركته الأعاصير السياسية من ظلال ، وما أدت إليه ، لا نقول من انقطاع كما طالب البعض ، وإنما من تباطوء .

وعلى سبيل المثال ، فإن السنوات ما بين ١٩٥٦ و ١٩٦١ كانت تمثل ذروة التوهج العروبي في مصر ، حتى إذا حدث الانفصال مع سوريا ، بدأت مشاعر بالألم والأسى تعرف طريقها إلى البعض منا في مصر ، وعزز من هذا التوجه السياسي الذي تلى حركة الانفصال من حيث التركيز على التوجه الاشتراكي ومشاركة وتدفق الكتابات الماركسية طوال فترة الستينيات مما كان له دوره في خفوت الصوت العروبي بعض الشيء .

وزاد الطين بلة ما حدث في أعقاب توقيع اتفاقية كامب ديفيد .

ومن هنا فإن المسار السياسي كان له دوره السلبي على الدور التعليمي ، ما دامت مصر قد بدأت تفقد ثقلها السياسي في توجيه الأحداث .

ولابد أن نضيف إلى هذا ما لمسناه كثير من المصريين العاملين في الدول الخليجية من حيث عدم السماح لأبنائهم بمواصلة التعليم الجامعي ، مما روج لمطالبات بالمعاملة بالمثل ، أو على الأقل تحمل الطالب العربي مصروفات تعلمه ، وهذا بدوره دفع البعض من الطلاب العرب أن يتوجهوا إلى بلدان غربية ، خاصة وأن الثقافة العربية مع الأسف تزداد احتراما للتعليم إذا كان في معهد غربي أكثر منه لو كان في معهد عربي !

إن ما نأمله حقا أن نثق بأن مصر مهما دفعت من تكاليف في العطاء التعليمي ، فإنها تجنى لنفسها وللمستقبل الأمة ما هو أكثر مما دفعته ، ولا نقصد هنا مجرد الدفع المالي ولكننا نقصد " البذل " و " العطاء " ، مما يوجب ألا يهتز هذا الشأن بالتقلبات السياسية .